مكانة القلب

لما كانت القلوب هي محلّ نظر الله – عزّ وجلّ – فبصلاحها يصلح العمل والجسد، وبفسادها يفسد العمل والجسد؛ وجب علىٰ كل مسلم ومسلمة تفقّد هذا القلب والاهتمام به، وعدم الغفلة عنه، والحرص كل الحرص علىٰ الأعمال الّتي تجلب السعادة والطمأنينة له، واجتناب الأعمال والأفكار الّتي تُسيئ إلىٰ القلب وتُمرضه، بل قد تُميته وتُتْلفه.

قال الإمام الحافظ ابن القيم – رحمه الله –:

« القلب هو الملك المشغل لجميع آلات البدن، والمستخدم لها، فهو محفوف بها، محشود، مخدوم، مستقر في الوسط.

وهو أشرف أعضاء البدن، وبه قوام الحياة، وهو منبع الروح الحيواني والحرارة الغريزية.

obeikandl.com

وهو معدن العقل والعلم، والحلم والشجاعة، والكرم، والصبر والاحتمال، والحب والإرادة ، والرضا والغضب، وسائر صفات الكمال.

فجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها، إنّما هي من أجناد القلب.

فإنّ العين طليعته ورائده الذي يكشف له المرئيّات، فإن رأت شيئًا أدّته إليه، ولشدّة الارتباط الّذي بينها وبينه، إذا استقر فيه شيء ظهر فيها، فهي مرآته المترجمة للناظر ما فيه.

كما أنّ اللسان ترجمانه المؤدي للسمع ما فيه.

ولهذا كثيراً ما يقرن - سبْحانه - في كتابه بين هذه الثلاث، كقوله: ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (٣٦) ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وكذلك يقرن بين القلب والبصر ، كقوله - تعالىٰ- :

﴿ ونُقلِّبُ أفئدتَهم وأبْصارَهُم ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وكذلك الأذن هي رسوله المؤدّي إليه.

وكذلك اللسان ترجمانه.

وبالجملة: فسائر الأعضاء خدمه وجنوده، وقال النّبيّ - ﷺ -: «**ألا وإنّ في الجسد مُضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[1].

وقال أبو هريرة - رضي الله عنه -: القلب ملك، والأعضاء جنوده، فإن طاب الملك طابت جنوده، وإن خبث الملك خبثت جنوده»[2].

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير - رضي الله عنه -.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ١٦).

obeikandl.com

استقامة القلب

قال الإمام الحافظ ابن القيم - رحمه الله - [١]:

«**فاستقامة القلب بشيئين:**

أحدهما - أن تكون محبة الله - تعالىٰ - تتقدّم عنده علىٰ جميع المحاب، فإذا تعارض حب الله - تعالىٰ - وحب غيره سبق حب الله - تعالىٰ - حبّ ما سواه، فرتب علىٰ ذلك مقتضاه.

ما أسهل هذا بالدعوىٰ، وما أصعبه بالفعل، فعند الامتحان يُكرم المرء أو يهان، وما أكثر ما يقدم العبد ما يحبه هو ويهواه أو يحبّه كبيره وأميره وشيخه وأهله علىٰ ما يحبّه الله - تعالىٰ -، فهذا لم تتقدم محبة الله - تعالىٰ - في قلبه جميع المحاب ولا كانت هي الملكة

(١) «الوابل الصيب من الكلم الطيب» (ص١٠ - ١٢).

obeikandl.com

المؤمرة عليها، وسُنّة الله – تعالىٰ – فيمن هذا شأنه أن ينكد عليه محابه وينغصها عليه، ولا ينال شيئًا منها إلاَّ بنكد وتنغيص جزاء له علىٰ إيثار هواه وهوىٰ من يعظّمه من الخلق أو يحبّه علىٰ محبّة الله – تعالىٰ –.

وقد قضىٰ الله – تعالىٰ – قضاءً لا يُردّ ولا يُدْفع؛ أنّ من أحبّ شيئًا سِواه عُذّبَ به ولابدّ، وأنّ من خاف غيره سُلِّطَ عليه، وأنّ من اشتغل بشيء غيره شؤمًا عليه، ومن آثر غيره عليه لم يُبارك فيه، ومن أرضىٰ غيره بسخطه أسخطه عليه ولابد.

الأمر الثاني - الّذي يستقيم به القلب تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشئ عن تعظيم الآمر النّاهي؛ فإنّ الله – تعالىٰ – ذمّ من لا يُعظم أمره ونهيه، قال – سُبْحانه وتعالىٰ –: ﴿ **ما لكُمْ لا ترْجُون للّهِ وقارًا (١٣)** ﴾ .

[نوح: ١٣].

open-kandit.com

قالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون لله – تعالىٰ – عظمة، وما أحسن ما قال شيخ الإسلام في تعظيم الأمر والنّهي: هو أن لا يعارضا بترخص جاف، ولا يعرضا لتشديد غال، ولا يحملا علىٰ علّة توهن الانقياد(١).

ومعنىٰ كلامه أنّ أول مراتب تعظيم الحق – عزّ وجلّ – تعظيم أمره ونهيه، وذلك المؤمن يعرف ربه – عزّ وجلّ – برسالته الّتي أرسل بها رسول الله – ﷺ – إلىٰ كافّة النّاس، ومُقتضاها الانقياد لأمره ونهيه، وإنّما يكون ذلك بتعظيم أمر الله – عزّ وجلّ – واتّباعه، وتعظيم نهيه واجتنابه، فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله – تعالىٰ – ونهيه دالاً علىٰ تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان

(١) والمعنىٰ هنا: أن لا تخالف أوامر الله – سبحانه وتعالىٰ – بالأعذار والرخص عمداً، ولا نتشدد حتىٰ نحرم بعض ما أحله الله –عز وجل – لنا.

والتصديق وصحّة العقيدة والبراءة من النفاق الأكبر؛ فإنّ الرّجل قد يتعطىٰ فعل الأمر لنظر الخلق وطلب المنزلة والجاه عندهم، ويتّقي المناهي؛ خشية سقوطه من عينهم وخشية العقوبات الدنيوية من الحدود الّتي رتّبها النّبيُّ - ﷺ - علىٰ النّاهي، فعلامة التعظيم للأوامر رعاية أوقاتها وحدودها، والتّفتيش علىٰ أركانها وواجباتها وكمالها، والحرص علىٰ تحينها في أوقاتها، والمسارعة إليها عند وجوبها، والحزن والكآبة والأسف عند فوت حق من حقوقها، كمن يحزن علىٰ فوت الجماعة، ويعلم أنّه إن تقبلت منه صلاته منفرداً؛ فإنه قد فاته سبعة وعشرون ضعفاً، ولو أنّ رجلاً يُعاني البيع والشّراء تفوته صفقة واحدة في بلده من غير سفر ولا مشقّة قيمتها سبعة وعشرون ديناراً لأكل يديه ندمًا وأسفًا، فكيف وكل ضعف مما تضاعف به صلاة الجماعة خيرٌ من ألف وألف ألفٍ، وما شاء اللهُ - تعالىٰ -.

فإذا فوّت العبد عليه هذا الربح قطعًا – وكثير من العلماء لا صلاة له – وهو بارد القلب فارغ، هذه المصيبة غير مرتاع لها؛ فهذا عدم تعظيم أمر الله – تعالىٰ – في قلبه، وكذلك إذا فاته أوّل الوقت الّذي هو رضوان الله – تعالىٰ –، أو فاته الصفّ الأوّل الَّتي يُصلِّي الله وملائكته علىٰ ميامنه، ولو يعلم العبد فضيلته لجالد عليه، ولكانت قرعة، وكذلك فوات الجمع الكثير الَّذي تضاعف الصّلاة بكثرته وقلته كلّما كثر الجمع كان أحب إلىٰ الله – عزَّ وجلّ –، وكلّمَا بعدت الخطا كانت خطوة تحط خطيئة، وأخرىٰ ترفع درجة، وكذلك فوات الخشوع في الصَّلاة وحضور القلب فيها بين يدي الرّبّ – تبارك وتعالىٰ – الّذي هو روحها ولبّها، فصلاة بلا خشوع ولا حضور كبدن ميّت لا روح فيه، أفلا يستحي العبد أن يُهدي إلىٰ مخلوق مثله عبدًا ميتًا أو جاريةً ميتة؟!، فما ظنّ هذا العبد أن تقع تلك الهدية

ممن قصده بها من ملك أو أمير و غيره، فهكذا سواء الصلاة الخالية من الخشوع والحضور وجمع الهمّة علىٰ الله – تعالىٰ – فيها بمنزلة هذا العبد – أو الأمة – الميت الّذي يريد إهداءه إلىٰ بعض الملوك، ولهذا لا يقبلها الله – تعالىٰ – منه، وأن أسقطت الفرض في أحكام الدنيا ولا يثيبه عليها؛ فإنّه ليس للعبد من صلاته إلاّ ما عقل منها كما في «السّنن» و«مسند الإمام أحمد» وغيره عن النَّبيّ – ﷺ – أنّه قال: «**إنّ العبد ليصلّي الصّلاة وما كتب له إلاَّ نصفها، إلاَّ ثلثها، إلاَّ ربعها، إلاّ خمسها -حتَّىٰ بلغ- عشرها**»(١).

وينبغي أن يُعلم أنّ سائر الأعمال تجري هذا المجرىٰ، فتفاضُل الأعمال عند الله – تعالَىٰ – بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص والمحبة وتوابعها، وهذا

(١) أخرجه أبو داود (٧٩٦)، وابن حبان (٨٨٦)، وحسّنه العلاّمة الألباني – رحمه الله تعالىٰ – في «صحيح الجامع» (١٦٢٦).

العمل الكامل هو الّذي يُكفّر السّيّئات تكفيراً كاملاً، والنّاقص بحسبه، وبهاتين القاعدتين تزول إشكالات كثيرة.

وهما: تفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلوب من حقائق الإيمان، وتكفير العمل للسّيّئات بحسب كماله».

obeikandl.com